دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	نظرية المؤامرة : مراجعة لدور الشك في التحليل السياسي
المصدر:	مجلة النهضة
الناشر:	جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية
المؤلف الرئيسي:	عرفات، إبراهيم أحمد
المجلد/العدد:	مج 6, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الشهر:	يوليو
الصفحات:	1 - 28
رقم MD:	67231
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الحركات الثورية، النظم السياسية، التحليل السياسي، النظريات السياسية، الفساد السياسي، الصراع السياسي، الانقلابات العسكرية، الاضطهاد السياسي، المعارضة السياسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/67231

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

نظرية المؤامرة: مراجعة لدور الشك في التحليل السياسي

د. إبراهيم عرفات*

مستخلص

يُقبل نفرٌ من العامة على استخدام تعبير "المؤامرة" لوصف ما يدور حولهم من أحداث سياسية. وهو إقبال قد لا يكون محدود، لا سيما وأن الصورة الشعبية المتداولة عن العمل السياسي ترتبط بمضامين غير أخلاقية ترى أن السياسة ليست إلا تجسيد للغدر والخداع والأنانية وما إلى ذلك من مفردات الشك والارتياب. وإذا كان للعامة أعذار يمكن تلمسها قد تفسر لماذا يلجأون إلى التفكير بالمؤامرة، إلا أن نفر قليل من الباحثين راح يزعم بأن المؤامرة ترقى لأن تكون نظرية قابلة للتوظيف في التحليل السياسي بدعوى أنها تقدم نموذجاً لفهم العلاقات والأحداث السياسية سواء داخل الدولة الواحدة أو فيما بين الدول، وهو زعم يحتاج إلى مراجعة وتفنيد، تحاول هذه الدراسة أن تقدمه.

وترفض هذه الورقة، ما يسمى خطأ "بنظرية المؤامرة"، على أساس أنها تنهض على بناء يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي ترتكن إليه النظريات العلمية. فبينما تبدأ النظريات العلمية من شك يحتمل اليقين، فإن التفكير بالمؤامرة يبدأ من يقين لا يقبل الشك، وبينما تنطلق النظريات العلمية من افتراضات تقبل الاختبار، إما أن يثبت صحتها أو يتأكد خطؤها، فإن "نظرية المؤامرة" تبدأ من قناعة لا تحتمل الظن ، فتقفز إلى النتائج دون توافر المقدمات الضرورية التي تؤكدها. فالقائلون "بنظرية المؤامرة" يرون من البداية أن العلاقات السياسية ليست إلا سلسلة لا نهاية لها من المكائد المدبرة والصفقات المشبوهة. وهو تصوير لا يخالف الواقع فحسب، وإنما يصعب في أغلب الأحيان إقامة الدليل القاطع عليه، لأن المؤامرة بحكم تعريفها لا تكتمل أركانها إلا بإخفاء الأدلة عليها، بينما النظريات العلمية لا تتأسس إلا على قاعدة واضحة من الأدلة والبراهين يمكن جمعها وتقييمها بشكل موضوعي. وتقدم هذه الورقة تفنيداً للمزاعم الداعية لتأصيل "المؤامرة" كنظرية تفسر السياسة، وترى أن ما يحتاجه التحليل العلمي ليس "نظرية مؤامرة" تُفسر بها السياسة، وإنما " نظرية عن المؤامرة " توضح لماذا يشيع التفكير بها عند تناول السياسة.

* أستاذ العلوم السياسية المساعد، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، مصر.

مقدمة : منظرون بلا نظرية

ربما لم يتعرض مصطلح لسوء الاستعمال كما حدث لمصطلح "نظرية"، وبالأخص عندما يأتي الأمر إلى تناول شؤون السياسة، حيث تتردد الكلمة كثيراً بين الناس ليعبروا من خلالها عن امتلاكهم رؤية يطمئنون إليها ويثقون في أنها تقطع لهم باليقين بصحة فهمهم لما يدور من حولهم، وتثبت لهم ما يتحلون به من حكمة وحصافة في فهم شؤون السياسة. ومن بين أكثر تلك النظريات جماهيرية ما يُسمى "نظرية المؤامرة" التي تعتبر أن الأحداث السياسية ليست إلا مركب من الغش والخداع الممزوجين بالاحتيال والمراوغة، وهو تصور يتوافق مع الصورة النمطية الشائعة، والمغلوطة، عن السياسة باعتبارها ممارسة لا أخلاقية للقوة، وتصرف غير مقيد بالقوانين، وعن السياسيين باعتبارهم أشرار متحايلون، يستحلون الحرمات ويؤمنون بأن الغاية لا بد وأن تبرر الوسيلة. فالسياسة كما يتصورها كثير من العامة ليست إلا سلسلة لا نهاية لها من المكائد والمكائد المضادة[١] ، أو هي رواية رسمية عادةً ما لا يصدقها الناس ، فيبحث في روايات بديلة تشكك فيما تقوله السلطة، تعتبر أن القصة الرسمية ليست إلا نسج ملفق لا يمثل سوى خيانة أو مؤامرة على الرواية الشعبية التي يفترض العامة أنها لا بد وأن تكون صحيحة[٢].

ولأن العامة لا يكلفون أنفسهم عناء البحث عن الأدلة والبراهين، كما لا يقع على عاتقهم مسؤولية التقيد بالاستخدام السليم للمصطلحات، ولأنهم عادة ما يبنون أحكامهم بسرعة وفقاً لمقاييس فضفاضة، فقد شاع بينهم تفسيرات مرتابة في السياسة تراها مؤامرة مستمرة، إلى أن أصبحت تلك الكلمة تبدو بسبب كثرة ترددها وكأنها هي النظرية السياسية للعوام.

إلا أن الأمر تعدى العامة وتسلل إلى نفر من الباحثين الذين رأوا أن المؤامرة ليست مجرد سلوك رديء يمارسه السياسيون، وإنما هي، وبسبب تكرارها، تشكل نموذجاً متكاملاً يصلح لفهم العلاقات السياسية. فقد انبرى ، على سبيل المثال، إيفان ماكينزى أستاذ العلوم السياسية بجامعة إلينوي الأمريكية، للدفاع عن "نظرية المؤامرة" واعتبرها شكلاً من أشكال النظرية السياسية الدارجة Vernacular Political Theory التي يتعين على الباحثين الاهتمام بها وتوظيفها واستكشاف قدراتها طالما بلغ اهتمام العامة بها حد طاغ[٣] . كذلك ، فإن آخرين وإن أشاروا إلى صعوبة التفرقة بين المؤامرات الحقيقية وتلك المتوهمة، إلا أنهم اعتبروا أن ذلك لا يبرر إغفال نظرية المؤامرة كإطار معرفي قابل للتوظيف في التحليل السياسي، خاصةً وأن أحداثاً سياسية عديدة مثل الفساد، والثورات، والانقلابات، والإرهاب، والحروب الثورية يناسبها التفسير التآمري بحكم ما تتضمنه من تخطيط مدبر وسرية[٤] ، على نحو يجعل تسفيه "نظرية المؤامرة" أمراً غير مقبول

بعـد أن أثبتت سجلات التاريخ بالأدلة القاطعة وقوع كثير من المؤامرات المدبرة [٥]. وقد روج بعض الباحـثين العـرب كذلـك "لنظرية المؤامرة" بدعوى أنها تمتلك القدرة على تفسير كثير من التفاعلات السياسـية المحـلية والدوليـة فـي مـنطقة الشرق الأوسط، داعين على ضوء السياسات الأمريكية والإسـرائيلية إلى اعـتماد تـلك النظرية كإطار تفسيري يعلي من قدرها بدلاً من معاملتها باستعلاء أكـاديمي على أنها نتاج أفكار مجموعة من الغوغائيين. كما انتقدوا إسراف الأكاديميا العربية في جلد الـذات مـنذ عقـد التسعينيات من القرن الماضي لإغفالها قيمة نظرية المؤامرة التي تعتبر من صميم ركائز السياسة الدولية، الأمر الذي يجعلها حقيقةً وليست ضرباً من الوهم أو الخيال[٦].

ويذهـب المدافعـون عن نظرية المؤامرة أيضاً إلى أنها تقدم نموذجاً معرفياً واضحاً ومبسطاً لـلعلاقات السياسـية المعقـدة، فتطرح سبباً مفترضاً يفسر نتيجة ما، تماماً كما تقتضي قواعد التحليل العـلمي. هذا فضلاً عن أنها تستجيب لما يسميه البعض بالوظيفة الكفاحية للنظرية السياسية من حيث مخاطـبة الواقـع ومحاولـة تغييـره. "فنظرية المؤامرة" ، من وجهة نظر المؤمنين بصحتها، ترسم للمستضعفين والمضطهدين خارطة طريق تبين أسباب الظلم والبؤس التي يعانون منها، وتحدد مصادر الخطـر الـتي تحـدق بهم، وبالتالي فإنها تساعدهم على تكوين صور مفهومة عن العالم المعقد الذي يسـكنونه، وتعيـد إليهم الثقة في أن المستقبل يمكن أن يكون أفضل عند التعرف على الخصم الواجب مواجهـته، وتحديـد الأوضاع غير المقبولة اللازم التخلص منها، وبالتالي فإنها، أي نظرية المؤامرة، تساعد على صياغة ملامح سياسة جديدة هدفها التغيير[٧].

وقـد حـاول بعـض الباحـثين أن يأخذ موقفاً أكثر اعتدالاً تجاه نظرية المؤامرة فلم يرفض وجودهـا على الإطلاق، كما لم يقبل بها على عواهنها ، وإنما دعا إلى التفرقة بين نمطين منها. الأول أسـماه بنظريات المؤامرة المتحاورة مع نفسها Monological Conspiracy Theories، وهي لا تـزيد عـن اتهامـات لا يمكن إثباتها أو نفيها بالاختبار ولا يقوم عليها دليل قوي ، بل تبدو كمقولات يطلقها شخص أو مجموعة منغلقة على ذاتها تحاور نفسها فلا تستمع إلا إلى ما تعتقد فيه. ومثل هذا النوع من النظريات ليس سوى أفكار جامدة يتبناها الفرد دون تمحيص ويتمسك بها بصرف النظر عما يدور في الحقيقة.

أما النمط الثاني فيُطلق عليه "نظريات المؤامرة المنفتحة على سياق الأحداث" Dialogical Conspiracy Theories، وتقـبل الارتقـاء إلى مسـتوى الـنظريات العلمية لأنها تقوم بمضاهاة الافـتراض بوجـود مؤامرة بما يحدث في الواقع وتحاول إثبات أو دحض الفكرة بناء على المعلومات المـتوافرة في الحقيقة. ولتوضيح الفارق بين النمطين، فإن اعتقاد الأمريكيين مثلاً في أن حكوماتهم

تخفي عنهم عمداً أدلة عن وجود أجسام طائرة قادمة من خارج الفضاء هو من قبيل نظريات المؤامرة المنغلقة على ذاتها ، بينما يعد ما قيل عن الرئيس نيكسون قبل أن تتكشف فضيحة ووترجيت من قبيل نظـريات المؤامرة المنفتحة على ذاتها، لأنه أمكن إثبات حادثة التآمر بالفعل بمجرد أن توافرت الأدلة، وبالتالي أمكن إخضاع مقولة المؤامرة لاختبارات الصدقية Falsifiability Test [٨].

ومـــع أن السياســـة لا تدور كلها في العلن، وبرغم أنها عرفت بين الحين والآخر مؤامرات أمكـــن إقامـــة الدليل على حدوثها، إلا أن ذلك ليس سبب كاف كي يؤهل "المؤامرة" لأن تصبح وكأنها العمود الفقري الذي تقوم عليه الحياة السياسية، أو البوابة التي يُنظر من خلالها إلى السلوك السياسي فيكـــون لها نظرية بإسمها، ونموذجاً معرفياً يقف على قدم وساق مع ما استقر من نظريات في التحليل السياسي.

فالـــنظرية العـــلمية لها تعريف وخصائص لا يمكن للتفكير التآمري أن يستوفيها. إذ يقضى الـــتعريف العـــلمي للنظرية بأنها ذلك الإطار الفكري الذي يصف ويفسر مجموعة من الفروض حول العلاقـــة بين ظاهرتين أحدهما سبب والآخر نتيجة. ولكي تعد نظرية ما علمية، فيتعين أن يتوافر لها خصـــائص، من أهمها: ١) التمتع بقدرة واضحة على التفسير ، بأن يكون للسبب أو مجموعة الأسباب الـــتي تفترضها تلك النظرية (أو ما يسمى بالمتغير المستقل) تأثير واسع على الظاهرة أو النتيجة محل الـــبحث (المتغير التابع) أكثر من غيرها من الأسباب ، ٢) أن تتصف بالقصد والإيجاز Parsimony ، فتستخدم أقل عدد ممكن من المتغيرات المستقلة أو الأسباب لتفسير الظاهرة محل البحث، ٣) أن يكون لديهـــا القـــدرة عـــلى إشباع الفضول إلى المعرفة فلا تفسر الظواهر التي تدرسها بالإحالة إلى أسباب غامضـــة لا يمكـــن إقامة الدليل الملموس عليها، ٤) أن تصاغ مقولاتها بوضوح وبشكل يساعد على الاختبار والتنبؤ، ٥) أن تكون مقولاتها قابلة للدحض Falsifiable على ضوء ما يتوافر باستمرار من معلومات جديدة، بما يجعل النظريات العلمية منفتحة دائماً للمراجعة والتغيير على ضوء ما يستجد من بـــراهين، ٦) أن تكـــون لها فوائد عملية واسعة، بأن تقدم تفسيراً لشأن من الشؤون العامة أو ظاهرة هامة ، وأن تطرح توصيات عملية يكون لها قيمة في معالجة الأوضاع القائمة [٩].

وإذا مـــا أخـــذت تلك الشروط في الاعتبار، فإن أطروحة "المؤامرة" لا يمكن أن تعتبر نظرية عـــلمية بإمكانهـــا تفســـير الظواهر السياسية، وإنما هي مجرد موضوع قابل للبحث، أو هي مادة خام تحـــتاج أن تدرس وتفسر بالاستعانة ببعض الأطر المعرفية والنماذج النظرية المستقرة في حقل العلوم السياســـية لتـــبين لمـــاذا ينتشر التفكير بين الناس بالمؤامرة. فما يحتاجه علم السياسة ليس "نظرية مؤامـــرة" تدعى أن السياسة لا تفهم إلا بها ، وإنما نظرية عن المؤامرة، تحاول أن تقف على الأسباب

التي تدفع بالأفراد والجماعات إلى التفكير بالمؤامرة والمبالغة في إساءة الظن بالفعل السياسي. ولهذا، فإنـــه بالرغم من كثرة المنظرين، وبالذات من بين العامة، باسم المؤامرة، إلا أن "تنظيرهم" يفتقر إلى المواصفات العلمية المطلوبة لاعتماد نظرية جديدة، ليظلوا منظرين بلا نظرية يطرحون سبباً لا تتوافر عـــليه غالـــباً أدلة، ويخالفون برأيهم القاطع ما يجب أن تتصف به النظرية العلمية من قابلية للرفض والنفي. فالمدعون بنظرية المؤامرة عادةً ما يتشبثون بقناعاتهم حتى ولو توافر دليل قاطع يؤكد عدم وقوع المؤامرة ، ويأتون بغير ما تتطلبه الاشتراطات الصارمة للنظرية العلمية بدءاً من صياغة إجابات احـــتمالية للســـؤال المطروح للبحث (أو الافتراضات) وانتهاءً بقابلة الأطروحات المفترضة للتجريب والاختبار بشكل دوري إلى أن يثبت إما صحتها أو خطأها دون تدخل أو توجيه.

ولمناقشـــة مـــا يرد على التفكير التآمري من مآخذ، فإن هذه الورقة سوف تضم ثلاثة أقسام يتوقف أولها عند عدد من الأبجديات، التي تؤصل لمصطلح المؤامرة، وتوضح جذور ما يسمى بنظرية المؤامـــرة أو الفكـــر التآمري. ثم يلي ذلك قسم ثان يرصد أسباب رواج التفكير بالمؤامرة سواء كانت تتعـــلق بالطـــبيعة الإنسانية، أو بمضمون الظاهرة السياسية نفسها، أو تتصل بنمط الثقافة التي ينتشر فيهـــا التفكير بالمؤامرة. وفي القسم الثالث والأخير تفند الورقة الادعاء بصحة "نظرية المؤامرة" على قـــاعدتين: الأولى عـــلمية تســـتبعد التفكير التآمري بالرجوع إلى المقاييس العلمية للنظريات، والثانية عملية تبين أخطاء اللجوء إلى التفكير بالمؤامرة على العمل السياسي ذاته عندما يتبادل أطراف العلاقة السياســـية الاتهامـــات، ليســـود اللجوء إلى الحيل على الاحتكام إلى القانون، ويتقدم التفكير في إيذاء الخصوم على الالتزام بما تقرره المؤسسات وما تقضي به القواعد.

أولاً: وقفـــة مع الأبجديـــات

تشير المعاجم العربية كالقاموس المحيط ولسان العرب والوسيط إلى أن كلمة "مؤامرة" مشتقة من الفعل الثلاثي (أ م ر). وتُعرّف هذه المصادر التآمر بأنه "تشاور الرجال فيما بينهم للإيقاع بشخص مـــا مـــن أجل إيذائه بل و حتى إهلاكه" احتكاماً إلى النص القرآني "إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك". كما تشـــير أيضـــاً إلى أن النفس الأمّارة هي التي تُغرى صاحبها على ارتكاب الشـــرور مصداقـــاً لقولـــه تعـــالـــــى " إن النفس لأمّارة بالسوء"[١٠]. وبالتالي، فالمؤامرة على ضوء تلك الإشارة اللغوية يمكن أن تُعـــرف عـــلى أنهـــا "اجتماع فرد مع آخرين للاتفاق في الخفاء على تدبير أمر يُنزلون به مكروهاً بالغيـــر"، أو هي "تواطؤ هدفه حبك مكيدة في الخفاء للقيام بعمل معاد ضد فرد أو جماعة، أو لارتكاب جـــريمة"، أو هـــي كما يعرفها معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية للدكتور أحمد زكي بدوي "اجتماع شخصين أو أكثر على تدبير سري يشتركون بموجبه في اقتراف فعل مناف للقانون"[١١].

ولا يبتعد معنى الكلمة في اللغات الأجنبية كثيراً عن دلالتها في اللغة العربية. فكلمة "Conspiracy" الإنجليزية اشتقت في القرن الرابع عشر الميلادي من الفعل اللاتيني "Conspirare" ويعني "التصرف بالاتفاق". وقد ظهرت تلك الكلمة كلفظ جديد مشتق من كلمتين هما "com" أي "معا" و "spirare" أي يتنفس، بمعنى أن يتنفس شخصان أو أكثر بالقرب من بعضهم البعض كناية عن اشتراكهم في الهمس وتقاسم سر خاص. وقد تحولت هذه الكلمة في اللاتينية مع مرور الوقت من "comspirare" إلى "conspirare" ، وفي الإنجليزية إلى الفعل "conspire" والاسم "conspiracy". وتُعرّف القواميس الإنجليزية مثل أوكسفورد وميريام ووبستر المؤامرة على أنها "الاشتراك في اتفاق سري للقيام بتصرف معيب أو عمل مخالف للقانون" أو هي وفقاً لموسوعة المعارف البريطانية "عمل يجمع شخصين أو أكثر إما لارتكاب تصرف غير قانوني، أو لتحقيق غاية مشروعة ولكن بوسائل غير قانونية، وهي سلوك لا يقوم عليه دليل قطعي وإنما يستشف وقوعه من أدلة ظرفية على نحو لا يجعل المشاركون في المؤامرة أحياناً يعرفون بعضهم البعض وهو ما يتحقق عن طريق وجود حلقة وصل hub أو طرف ثالث يرتبط عن طريقه بقية الأفراد دون أن يعرف بعضهم بعضاً". أو هي في تعريف آخر "مكيدة سرية تخطط لها جماعة تستهدف من ورائها تحقيق أهداف معينة ربما تكون قانونية أو غير قانونية، ولكن الوسائل المحددة للوصول إليها دائماً ما تكون هدامة"(١٢).

وللمؤامرة على هذا النحو أربعة عناصر أساسية تتكون منها هي:

أ) متآمر أو متآمرون، كطرف يلعب دور الفاعل المتهم بالشر،

ب) دوافع شريرة تحرك المتآمرين تخرج عن حدود التصرفات الشرعية والأخلاقية،

ج) متآمر ضده كطرف آخر يمثل الهدف أو الضحية التي لا تعلم ما يخطط لها في الخفاء، وقد تكون شخص أو جماعة أو حتى أمة بأكملها،

د) وسائل تمكن المتآمرين من الوصول إلى إشباع دوافعهم وتحقيق الهدف الذي يتآمرون من أجله.

واستناداً إلى تلك الدلالة اللغوية، فإن نظرية المؤامرة هي "ذلك الإطار الذي يحاول أن يفسر الأحداث على أنها نتيجة إضرار متعمد يقع بفرد أو جماعة بسبب مكيدة تدبر سراً على يد مجموعة أخرى، بحيث لا يُنظر إلى السياسة على أنها نتاج تفاعلات طبيعية، مثل صراع المصالح أو توازنات القوى، وإنما باعتبارها محصلة لمخططات سرية وألعاب غير شريفة"(١٣). بعبارة أخرى، فإن نظرية المؤامرة تشكلاً نموذجاً يحاول أن يقدم شكل تجريدياً عن الأحداث التاريخية أو المعاصرة باعتبارها أفعالاً مقصودة نتجت عن مكائد مخططة تتضمن التورط في أعمال ضارة من قبيل التلاعب بالحكومات، أو استنزاف الاقتصاد من أجل مصالح لا يجيزها القانون، أو تعريض السلامة الوطنية للتهديد. كما

يقـدم التفسير التآمري المشاركين في تدبير المكائد على أنهم أناس شديدو المكر، قادرون على إخفاء المعـلومات الـتي تدينهم، لأن من شأن الكشف عنها إثبات وقوع المخالفة[١٤]. فنظرية المؤامرة تقوم عـلى "اسـتعداد الفـرد للإيمـان بوجود شبكة واسعة من العناصر المؤذيـة التي تأتـي بأعمـال شـريـرة"[١٥] ، أو هي "رؤية تحاول أن تضفي ملامح طبيعية عن صورة مفترضة عن السياسة بأنها ليست إلا سلسلة من المؤامرات والحيل"[١٦].

ومع أن المؤامرات تعود إلى ماضى ضارب في القدم منذ أن صورت الأساطير اليونانية مكائد دبرتها قوى الطبيعة، بل وحتى الآلهة الإغريقية ضد الإنسان وضد بعضها البعض، كما ترتد إلى الكتب المقدسة التي جاءت بأنباء عن أوجه مكر نفذتها جماعات وأقوام ضد قوى الخير والحق، إلا إن إخراج المؤامرة من ثوبها الميثولوجي، ومن طابعها الثيولوجي، وإلباسها طابعاً دنيوياً يمس اعتقاد البشر في السياسـة يعود إلى جذور أقرب. وفي هذا الصدد يتفاوت تقدير الباحثين حول جذور التفكير بالمؤامرة فـي فهـم الظاهرة السياسية. فهناك من يعيد نظرية المؤامرة إلى القرون الوسطى، وهناك من يردها إلى القرن العشرين وبالتحديد إلى مرحلة ما بعد الحداثة.

فعـلى الجـانب الأول، يرى القائلون بصلة نظرية المؤامرة بالقرون الوسطى أن تلك النظرية تغـذت عـلى رافدين خلال الفترة الممتدة من حوالي سنة ٣٥٠م إلى سنة ١٤٥٠م ، أولهما النظرة الأوروبيـة المرتابة في الأقلية اليهودية التـي استطاعـت أن تجمـع أرصـدة ماليـة هائلـة برغم عـدم امـتلاكهـا أراضـى وإقطاعات تتناسب مع حجم الثروة التي كانت تراكمها مما أثار حولها الشكوك، لتنسج عن تلك الأقلية على وجه الخصوص مجموعة واسعة من المقولات التآمرية. و اشتط بعضـها فـزعم، في ظل انتشار ثقافة الخرافة في حينه، أن اليهود كانوا يحصلون على الأموال بسبب تحالفهم مع الشياطين والقوى الشريرة.

وأمـا الـرافد الآخر فيعود إلى عام ١١١٨ عندما تأسست في فرنسا جماعة تسمى "فرسان المعـبد" ، و كـانت مجموعة سرية ذات صبغة دينية عسكرية ضمت رهباناً مسلحين أنيط بهم مهمة تـأمين طـريق الحجاج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين. غير أن تلك الجماعة بدأت تؤدى أدواراً أخـرى إلى جـانب مهمـتها الأصلية فازدادت قوتها وتعاظم نفوذها وبدأت توسع أنشطتها لتشمل نقل الأمـوال بين أوروبا وفلسطين وبالعكس، الأمر الذي درّ عليها أرباحاً طائلة. وإلى جانب ذلك كانت تلك الجماعـة تحمل معها وهي عائدة من الشرق الأوسط- حيث التقاء اليهودية بالمسيحية بالإسلام- أفكـاراً اعتبرت غريبة في حينه على أوروبا، مما تسبب في ظهور كثير من التفسيرات التآمرية حول تلك الجماعة، وأشيع عنها أنها تخدم نفوذ قوىً أجنبية، وهو ما استغله الملك فيليب الرابع ملك فرنسا،

فـألقى القـبض عـلى قادتها وصادر ممتلكاتها في ١٣٠٦، وتبع ذلك قرار البابا كليمنس الخامس في ١٣١٢ بحـل تـلك الجماعـة نتيجة ما تردد وقتها بأنها تقوم بأعمال مثيرة ومريبة. وسواء انصب الاهـتمام على ممارسات تلك الجماعة أو على رد فعل السلطتين الدينية والزمنية تجاهها، فإن النتيجة كانت واحدة، وهي التوسع في إطلاق المؤامرات بين مختلف القوي السياسية، وهو ما عززته سيطرة الكنيسـة وهيمنـتها على الشؤون الدينية والدنيوية، وكثرة حوادث الاغتيالات في أكثر من بلاط ملكي أوروبي. الأمر الذي شكل مادةً مناسبةً لتغذية الاعتقاد في صحة أفكار المؤامرة [١٧].

وعـلى الجانب الآخر، ذهب البعض إلى أن المؤامرة، برغم قدمها تاريخياً، لم تطرح كمنظور لتفسـير السـلوك السياسي إلا مع الاضطرابات والتقلبات التي صاحبت الانتقال من مرحلة الحداثة إلى مرحـلة ما بعد الحداثة. فبالرغم من أن الحداثة دعت إلى تبني التفكير العلمي الرشيد ودافعت عن بناء معـرفة تـنهض عـلى التجريب والأدلة، وبرغم أنها عارضت الحكم على الآخرين بناء على أوهام أو ظـنون، وبـرغم أنها افترضت وجود قيم يتفق عليها البشر بصرف النظر عن خصوصياتهم، إلا أنها بـرغم كـل ذلـك أفضـت إلى نتائج مخالفة لما كانت تدعو إليه. فقد صاحبها إغراق هائل في الميول الاسـتهلاكية "Consumerism" ومظاهر الترف، وهو ما لم تقوى على مجاراته كثير من الجماعات والأوطـان التي وجدت أن تلك النزعة لا تتفق مع ما لديها من تقاليد وموروث ثقافي، على نحو تسبب فـي موجـات من معارضة آثار الحداثة وما تمثله من قيم مستجدة وأعاد إلى الواجهة مسألة الهوية والخصوصـية. ليظهـر فـي مقـابل دعوة الحداثة إلى عالم تسوده قيم موحدة ، اتجاهـات مضادة تعـترض على نمطية القيـم ووحـدة المعاييـر وتتبنـى رؤىً تفكيـكيـة Deconstructive تـرفض ذوبـان الخصوصيات في ثقافة الحداثة وتدافع عن شتى صور الانتماءات الضيقة، الأمر الذي أفرز حالة من الشك المتبادل بين الهويات تجسدت ذروته في انتشار التفكير التآمري .

فـنظرية المؤامرة إذاً هي واحدة من توابع الانتقال إلى مرحلة ما بعد الحداثة حيث يستخدمها غيـر المـتكيفين مـع ضـغوط التحديث سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو بلدان في تطوير ما يسمي "بالخيـال المابعدي" أو الخيال فيما وراء الأشياء Dietrological Imagination ، وهو نوع من الـتخيل الدفـاعي تحـذر به الجماعات الواقعة تحت ضغوط العولمة والنزعة الاستهلاكية من مختلف أشكال التهديد التي يمكن أن تتعرض إليها[١٨].

وبـرغم الـتفاوت فـي تقديـر المنشأ التاريخي لنظرية المؤامرة بين من يعيدها إلى القرون الوسطى ومن يردها إلى مرحلة ما بعد الحداثة، إلا أن من اهتم بدراستها أجمع على أن هناك أركان أو مكونـات رئيسية لا تقوم نظرية المؤامرة إلا بها. ففي البداية ينطلق التفكير التآمري من أن الرواية

الرسـمية المطروحة بشأن أمر ما لا تقدم الحقيقة، وأن الشك في مصداقيتها يتطلب البحث عن قصص بديلة ترضي المزاج العام، وتتمتع بقدر كبير من الحبكة والجاذبية كي تصل إلى عقول الآخرين وتؤثر فيهـم لتحمـلهم عـلى الموافقة والتصديق. ولهذا السبب، فإن نظرية المؤامرة عادةً ما تصاغ بشكل عـاطفي يصل أحياناً إلى توظيف الرموز الدينية التي تختزل العالم فـي معسكرين أحدهمـا متآمر يمثل الشـر والآخر متآمر عليه يمثل الخير(١٩).

ويسود بين من اهتموا بدراسة نظرية المؤامرة قدر كبير من الاتفاق على أن هناك ستة مكونات تشكل معاً الأبعاد الرئيسية التي عادةً ما تتضمنها روايات المؤامرة ، وهي:

١-التقسـيم الازدواجـي لـلعالم عن طريق تصوير القضية محل اهتمام الرأي العام على أنها صـراع بين خير مطلق وشر مستطير، فيصف قوى الخير بأنها ضحية بريئة، ويضفي على قوى الشر صـفات سـلبية مخيفـة تصـل في مبالغتها إلى اعتبار الطـرف الضالع في المؤامـرة بمثابـة استنسـاخ للشـر نفسـه An Evil Incarnate . كما تهتم تلك النظرية بإبراز مدى ضراوة الدوافـع الشريرة للمتآمرين فتصورها على أنها لا نهائية وعالمية. فالجماعة المتآمرة لا تصور على أنهـا تدبـر مكيـدة واحـدة، وإنما تندفع بطبيعتها الشريرة إلى تدبير سلسلة من المكائد الواحدة تلو الأخرى. كذلك، لا تصور قوى الشر على أنها محلية أو محدودة التأثير وإنما على أنها جزء من حركة عالميـة أوسـع، بما لا يجعل المؤامرة تبدو وكأنها حدث عادي وإنما واقعة كبرى تحمل على الاعتقاد بـأن التحولات السياسية تقع نتيجة أعمال سرية متآمرة (٢٠). فكثير من نظريات المؤامرة التي نسجت على سبيل المثال حول الفاتيكان، واليهود، والمحافل الماسونية، والإخوان المسلمين، والصليب والهلال الأحمـرين، ووكالة الاستخبارات المركزية، والإنتربول، وتنظيم القاعدة صورت تلك الجهات على أنها ضالعة في مؤامرات عالمية واسعة تستطيع عبور الحدود والتلاعب بالسياسة والسياسيين أينما كانوا. وحـتى إذا مـا تعـلق موضوع المؤامرة بجماعة محلية النشاط ، مثل كو كلوكس كلان في الولايات المـتحدة، فإن كثيراً من نظريات المؤامرة التي تتردد عنها عادةً ما تربطها بمشروع تآمري أكبر مثل محاولة بناء نظام عالمي جديد (٢١).

وحيـث أن الـتفكير التآمري يرتكز على الشك اللانهائي والخوف غير المحدود من تصرفات الآخـرين، فـإن المبالغة في الحذر وتأمين الذات ضد من يصورون على أنهم خصوم يصل إلى ذروته بإضـفاء صـفات قد لا تتوافر في الحقيقة فيمن يتهمون بالتآمر، هذا إن كان افتراض وقوع المؤامرة صحيح من الأساس. فالمتآمر يقترب من صورة "الشيطان الأعظم" أو "محور الشـر" أو " الكافرين" أو "الفـئة الضالة"، وما إلى غير ذلك من أوصاف سلبية تلصق بالخصوم لتشوه سمعتهم وتقطع عليهم

الطـريق لأيـة محاولـة قد يقومون بها لتبرئة صورتهم أو التعبير عن أنفسهم بشكل يتعارض مع ما تروج لـه نظرية المؤامرة.

٢-العـودة إلى الـتاريخ لاسـتلهام قصص مشابهة للواقعة محل التفسير التآمري حتى تتمتع قصة المؤامـرة بالقدرة على الإقناع، أو من أجل إلحاق مزيد من التشويه بالقوى المتهمة بالمؤامرة بإظهار مـا تقـوم بـه فـي الحاضر على أنه امتداد لدور تاريخي قديم اعتادت أن تؤديه. وينطبق مثل هذا الـتوظيف غيـر المسـؤول للتاريخ على سبيل المثال على ما يقوم به بعض المسلمين الذين يقرءون الـتاريخ بشـكل انـتقائي مقصود من أجل التدليل على أن هناك مؤامرة صليبية لا تنتهي ضد الإسلام والمسـلمين، أو عـلى مـا يفعله بعض الغربيين من خلال إشاراتهم إلى تاريخ الوجود الإسلامي في الأندلـس كمرحلة ماضية يرون فيها دليلاً على وجود مؤامرة إسلامية يحيكها المهاجرون المعاصرون ضـد المجـتمعات الغـربية ليهـددوا بها ثوابتها وليخترقوا بها خصوصياتها، تماماً كما فعل أجدادهم المسلمين قبل قرون مضت.

٣-تصوير الجهة المتهمة بالمؤامرة على أنها كتلة واحدة متراصة Monolithic على نحو يبالغ فـي إظهـار قوتها وخطورتها ويؤكد إصرارها غير المحدود على تحقيق الأهداف التي ترسمها، وذلك دون التفات إلى ما قد يوجد بين عناصرها من فروق وخلافات، كأن ينظر إلى الشيوعيين والرأسماليين مـثلاً عـلى أنهم - وبرغم الاختلافات الجوهرية فيما بينهم - متآمرون معاً ضد العالم الثالث، أو إلى اليهـود والمسـيحيين عـلى أنهم ضالعين في مؤامرة كبرى ضد الإسلام، أو إلى المسلمين على أنهم يفكرون مثلما تفكر منظمة القاعدة، وأنهم يخططون معاً من أجل تدمير العالم الحر. وضمن مثل هذا الإطـار مـن الـتفكير، تصـور نظـرية المؤامـرة المـتآمرين عـلى أنهـم فـريق واسع الانتشار Omnipresent لا تعوقه الجغرافيا ولا توقفه قيود السيادة بل يستطيع أن يخترق الحدود ويتسلل إلى أي موقـع يـريده، وهي تصورات عززت منها عملية العولمة التي سهلت الاعتقاد في أن مدبري المؤامـرات قـد سـهلت مهمـتهم بعد أن تلاشت المسافات وتيسرت وسائل الاتصال. وبنفس منطق المـبالغة، تصـور نظـرية المؤامـرة المـتآمرين عـلى أنهـم أصـحاب قـوة غير محدودة التأثير omnipotent ، لتلتصـق بهـم اتهامـات حـول قدرتهـم عـلى تنفيذ أعمال خطيرة مثل إسقاط الإمبراطوريات وهز العروش وإفساد مجتمعات بأكملها [٢٢].

٤-الـبحث عن أكثر الدوافع حطة وخسة في تفسير المؤامرة، إذ لا تكتفي تلك النظرية بتشويه صورة المتآمر من خلال النبش في تاريخه القديم، وإنما تبحث أيضاً عن دوافع معاصرة تلصقها به كي يجتمع في قصة المؤامرة عنصري الإقناع: حجة التاريخ واعتبارات الحاضر. فنظرية المؤامرة لا تنسج حول

دوافـع عاديـة يشـيع الـلجوء إليهـا في التحليل السياسي مثل التنافس على النفوذ أو السعي وراء المصالح، أو توازن القوى، أو الحفاظ على تماسك التحالفات، وإنما تصاغ حول أغراض خبيثة ونوايا شـريرة ومصـالح أنانيـة، إن لم تكن شيطانية لا تقبل الحلول الوسط، وأحياناً حول دعاوى عنصرية يكون الهدف من وراءها تشويه صورة الآخر المتهم بالمؤامرة تشويهاً مركباً يجمع بين صور تاريخية سلبية وتصرفات معاصرة مريبة [٢٣].

٥-تضـخيم حجم المؤامرة وصياغتها بطريقة معقدة وغامضة من أجل الوصول بها إلى مستوى من التشـويق والإثـارة يشد إليها الانتباه ويجعلها قابلة للتصديق. إذ كلما زادت رواية المؤامرة غموضاً ازدادت قدرتهـا عـلى الحشـد والتأثير [٢٤]، لأن الإقبال على الاستماع إلى نظرية المؤامرة يزداد كلما تعددت عناصرها وتنوعت الجهات المشاركة فيها. وعادةً ما يتم تضخيم المؤامرة بالإسراف في الحديث عـن الطـابع السري للمخططين لها، وتضمين القصة أسماء وجهات معروفة حتى يتولد الانطباع بأن القصة صادقة وليست متخيلة أو ملفقة. فأصحاب نظرية المؤامرة لا يبالون كثيراً بالبحث عن الحقيقة وإنما يهتمون بتقديم ما يمكن أن يتصوره الآخرون على أنه هو الحقيقة.

٦-ومـن أجـل إتقـان التشـويق وزيادة الغموض تلجأ نظريات المؤامرة كثيراً إلى ما يعرف بالبيانات الشاردة Errant Data التي هي وقائع صغيرة وأحداث عابرة تسبق أو تصاحب أو قد تلي الواقعـة التي تُصاغ المؤامرة حولها [٢٥]. ولا يقتضي الأمر أن تكون تلك البيانات بالضرورة صحيحة، بـل الأهم أن تصاغ بلغة مقنعة تتضمن خليطاً من الإشارات الموحية Spaghetti-Heap of Leads الـتي تشجع على الاقتناع بأن الأمر المطروح للتفسير لا يمكن فهمه إلا على أساس أنه مؤامرة. وكي تكـون تلك التلميحات كذلك، فإنها تختار بعناية فائقة حتى تبدو مرتبطة وبشكل منطقي بقضايا جوهرية محل اهتمام المجتمع المقصود إقناعه بوقوع المؤامرة، وتُصاغ بأسلوب إن لم يكن ممكناً إثباته إلا أنه في نفس الوقت يبقى من غير الممكن دحضه [٢٦].

ولإظهار ما تحمله نظرية المؤامرة من غموض، يقدم الشكل التالي صورة توضح كيف تغطي روايات المؤامـرة بمكوناتهـا الستة العناصر الأربعة التي يتضمنها فعل المؤامرة (متآمر، متآمر ضده، دافع، وسـيلة تآمر)، وهو شكل يوضح حجم التعقيد الذي يمكن أن تذهب إليه نظريات المؤامرة وتهدف من ورائه أن لا يكون ما تطرحه عرضة للشك أو الارتياب.

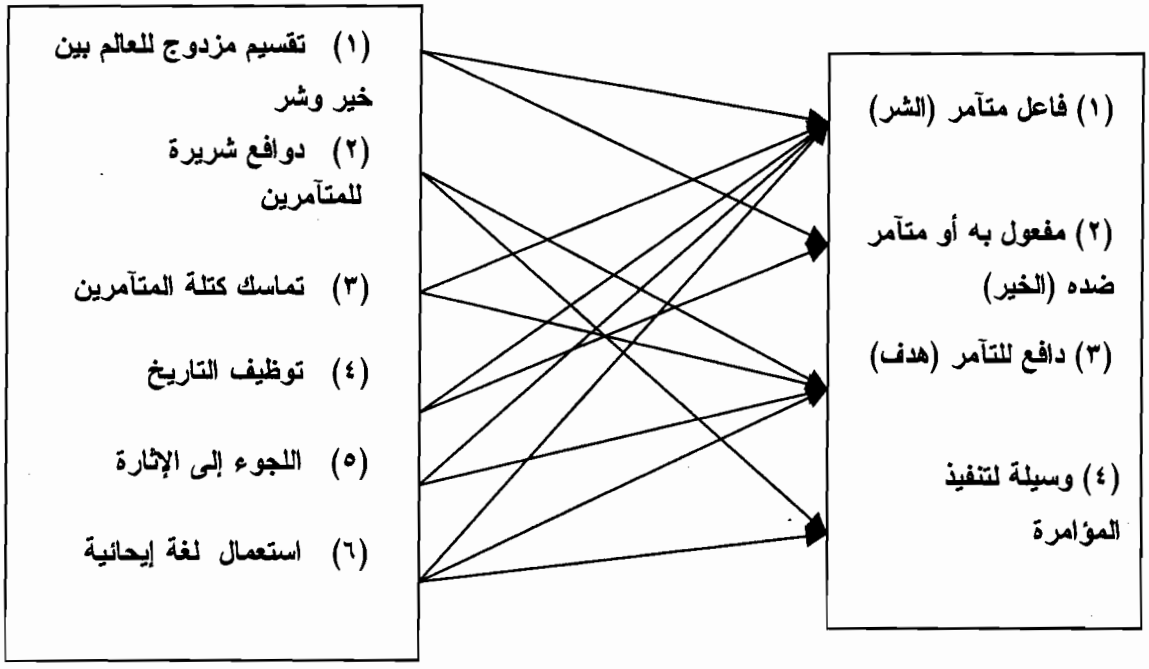

عناصر المؤامرة

مكونات نظريات المؤامرة

ثانياً: مصادر الرواج

يرد المهتمون بنظرية المؤامرة ما تحظى به من رواج وشعبية إلي طائفة من الأسباب ، يمكن وضعها في ثلاثة مجموعات. فهناك أولاً عوامل تتعلق بالطبيعة الإنسانية ذاتها وما تتصف به من استعداد للقبول بالتفسيرات الغامضة وتصديق فكرة الشرور المدبرة ، وبالذات في الحياة السياسة، التي ترتبط بصور قديمة ومعاصرة تبالغ في تجسيد القهر وجبروت القوة. وثانياً هناك ما يتصل بطبيعة الحدث السياسي ذاته باعتبار أنه صراع مفتوح من أجل القوة، لا يخضع، مهما كانت المحاولة، للقواعد والقوانين لا سيما وأن ارتباط السياسة اللصيق بوقوع أعمال العنف وحالات عدم الاستقرار يشجع على تبادل الشك سواء بين المنخرطين في العمل السياسي أو بينهم وبين عامة الجمهور، وهو ما يصل إلى قمته عند توجيه الاتهام للآخرين بتدبير المؤامرات. وثالثاً، يوجد من يميل إلى تفسير التفكير بالمؤامرة على أنه وليد للثقافة السائدة، وأنه نوع من الخرافة السياسية التي تشيع وسط قيم واتجاهات ومعايير بعينها تتسرع الحكم على الأشخاص والأحداث، فتبتعد عن العقلانية وتعتمد بدلاً من ذلك على تطوير مدركات عن السياسة تقترب إلى القصص الشعبي الأسطوري الذي يحب أن ينظر إلى الوقائع على أنها ازدواجيات أشهرها ازدواجية الخير والشر. وفيما يلي إيضاح لتلك المجموعات الثلاثة من الأسباب.

١- المؤامرة الطبيعة البشرية

برغم اتفاقهم على وجود علاقة بين انتشار نظرية المؤامرة والطبيعة البشرية إلا أن الباحثين المؤيدين لهذا التفسير يطرحون اجتهادات مختلفة. فهناك من يعتبر التفكير بالمؤامرة نوع من نزوع الطبيعة الإنسانية المفرط والتلقائي إلى الحذر والشك في الآخرين وسعيها المتواصل إلى تعظيم مساحة الأمان التي تتحرك فيها. فبسبب هيمنة مشاعر القلق والخوف واستبدادها بالإنسان، وبالذات حينما يتعرض لمواجهة السلطة طور الفكر البشري، وبشكل تلقائي غير واع، مفاهيم وطرق تفكير تساعد الفرد على حماية نفسه والصمود في وجه المخاطر كان من أبرزها التفكير بالمؤامرة كاحتياط دفاعي ووسيلة للحماية يواجه بها المرء الواقع وتقلباته.

فعن طريق التفكير بالمؤامرة، يتبنى الإنسان تفسيرات مسبقة عن الآخرين تقسمهم إلى أصدقاء يمكن الوثوق بهم وأعداء يتعين الارتياب فيهم، وهي تقسيمات تتناسب مع الميل الفطري لإعفاء الذات من المسؤولية وإلقاء الخطأ على الغير. فعن طريق التفكير بالمؤامرة يبالغ الإنسان في تقدير المخاوف وتجسيد الشرور، فيرى أحداثاً عادية على أنها تحديات جسيمة، ويعتبر بعض العوارض الطارئة مقدمة لتهديدات خطيرة قادمة، ويترجم أحداثاً فردية قد يتعرض لها على أنها جزء من مخطط أوسع يستهدفه هو والجماعة المرجعية التي ينتمي إليها. وبرغم المبالغة في تلك التصورات، إلا أن الإنسان يميل إلى الأخذ بها طالما أنها تلبي رغبته في تحقيق الأمن والحماية [٢٧]. ولأن السلوك السياسي يتسم بتقلباته المفاجئة مقارنةً بغيره من أشكال السلوك، فقد شاع التفكير بالمؤامرة تجاه الحياة السياسية أكثر من غيرها من مجالات الحياة كوسيلة لتأمين الذات من مخاطر تحولاتها غير الآمنـــة. فالاعتقاد إذاً في نظرية المؤامرة إنما يعود إلى عدم القدرة البشرية على توقع المجهول القادم من وراء العمل السياسي، والعجز عن الكشف عما يستتر وراءه من مخاطر وغموض، وبالتالي يظهر التفكير بالمؤامرة كخط دفاع آلي يبنيه المرء بنفسه ضد المفاجآت والمخاطر غير المتوقعة[٢٨].

على جانب آخر، يربط بعض الباحثين رواج التفكير بالمؤامرة بما يسميـــــه "بنظام الاعتقاد النمطي" Typical Belief System الذي يشير إلى ميل المرء، وبسبب عدم قدرته على الإلمام بالواقع المعقد من حولـــه، إلى تكوين صورة بديلة عن هذا العالم تعوض لـــه عجزه عن فهم الغموض الذي يكتنفه، وتفسر لـــه مالا يستطيع أن يفهمه. وعادةً ما يكون تفسير الفرد لهذا الغموض ممزوجاً بشعور قوي بتعرضه للاضطهاد، وأن هناك دائماً قوى شريرة تتربص به وتعمل ضده في الخفاء لتمنعه من الوصول إلى الحقيقة وتعيقه عن فك طلاسمها [٢٩].

ويعيد رأي ثالث رواج التفكير بالمؤامرة إلى ميل الإنسان الطبيعي إلى تكوين أهواء والتعبير عن أشكال مختلفة من الانحياز Prejudices إما مع أو ضد كثير مما يجده من حولـــه، وهنا يبرز التفكير بالمؤامرة كوسيلة للفرز بين الأهواء والتعبير عن تلك الانحيازات. فما لا يميل إليه الإنسان يعتبره شراً يضطهده، وما يقبله ويتحمس إليه يراه خيراً معرض دائماً للاستهداف بالمكائد والحيل. ويجعل هذا التفسير من "الاضطهاد" الفكرة الرئيسية التي تتكون حولها ميول وأهواء البشر، وهي فكرةٌ لا تكتفي المشاعر الإنسانية بالوقوف ضدها بالرفض، وإنما عادةً ما تغالي في مثل هذا الرفض من خلال وصف كل ما لا تتفق معه على أنه خطر ماحق يتربص بها[٣٠].

إلا أن باحثين آخرين يعتقدون أن نظرية المؤامرة راجت لأنها مناسبة لأكثر من نمط من أنماط الشخصية. لأن مقولاتها البسيطة عن العلاقات السياسية المعقدة تناسب على سبيل المثال الشخصيات النرجسية والانتهازية، والمتوجسة، والاستعلائية، والدونية، فتقدم لكل منها تبريراً يناسبها ويلبي احتياجاتها، ويزيح من أمامها أي نقد للذات أو للمجتمعات التي ينتسبون إليها، ويضع العبء إما على ظروف خارجة عن الإرادة أو على قوة خارجية شريرة. ويرصد هذا التقدير أحد عشر مكوناً تتضمنها نظريات المؤامرة تحمل جميعها أبعاداً نفسية تلبى متطلبات أنماط مختلفة من الشخصية وهي: السرية والقلق والاضطهاد والأنانية والقمع والمراوغة والإيهام والجهل والترويع والإغراء والإيحاء[٣١]. فنظرية المؤامرة، من هذا المنظور، لا تتفق فقط مع ميول أصحاب الرؤى الفكرية المتطرفة من اليمين واليسار، وإنما تناسب مختلف ألوان الطيف السياسي بما في ذلك أصحاب الرؤى الوسطية[٣٢].

وعلى العكس من ذلك، يعتقد نفر آخر أن نظرية المؤامرة لا تناسب كل أنماط الشخصية وإنما يتبناها فقط كل من لديه ميل للانقياد والاستسلام للأفكار السهلة مسبقة الصنع. فقد يتعرض عدة أشخاص لنفس المؤثرات البيئية والثقافية ويعيشون نفس الحدث ولكن واحداً أو بعضاً منهم هم من يلجأون إلى نظرية المؤامرة لتفسير ذلك الحدث في حين يميل الآخرون إلى تبني تفسيرات مخالفة. وبالتالي، فإن نظرية المؤامرة وفق هذا الرأي لا يتبناها إلا أصحاب الاستعداد الشخصي المسبق للإيمان بها[٣٣]. ومن أبرز أنماط الشخصية المهيأة للتصديق بالمؤامرة والتفكير بمقتضاها ما يسميه أدورنو بالشخصية السلطوية Authoritarian Personality، التي تتصف باستعدادها لتلقى الأوامر، حتى تجد ما يمنحها الأمن والاستقرار، وهي شخصية تعاني حالة قلق يدفعها باستمرار إلي الشك في الآخرين وعدم التسامح مع ما تراه مخالفاً لها في الرأي ، كما تميل إلى خلق عالم خاص بها من الخرافات يفسر لها التاريخ وفق رؤىً محددة تطمئن إليها، تقسم بها العالم وبمنطق ثنائي إلى شر مطلق (هم) وخير مطلق (نحن) [٣٤].

٣-المؤامرة وطبيعة الظاهرة السياسية

أما التفسير الثاني فيعيد رواج نظرية المؤامرة إلى طبيعة الظاهرة السياسية وما تتضمنه من صراع مستمر على القوة تُستغل فيه شتى الوسائل للوصول إلى الغاية، وهي وسائل يعتقد غالبية العامة أنها ملتفة ومشبوهة. فالظاهرة السياسية في عيون العوام أقرب ما تكون إلى سلسلة من الأحداث الدرامية المليئة بالتشويق والإثارة، باطنها غير ظاهرها، لا يعلم عنها سوى نذر يسير، على نحو يلفها بغموض قد لا يكون بالضرورة فيها، ولكنه ذلك الغموض الذي يفتح الباب أمام الكافة لنسج عشرات من نظريات المؤامرة. وحتى ولو توافر تفسير ظاهري مقنع للحدث السياسي، فإن العوام غالباً ما يفترضون أنه نتيجة عمل مدبر أو مؤامرة. فالعامة بطبيعتهم، كما يشير ياربرو، قد تستوقفهم بعض الأحداث السياسية البسيطة، إلا أنهم ينجذبون أكثر إلى الأحداث الدرامية التي تشد انتباههم، من قبيل: الحروب، واغتيال القادة والمسؤولين، واندلاع الثورات، والانقلابات، وسقوط الإمبراطوريات، وتفكك الدول، وحالات الوفاة المفاجئة، وحوادث العنف العرقي و الانتخابي، وأعمال الإرهاب. فمثل هذه الأحداث تمثل المادة الخام التي تنسج من حولها نظريات المؤامرة(٣٥). فمصرع الأميرة ديانا، أو اغتيال مارتن لوثر كنج، أو مقتل الرئيس جون كنيدى، أو الوفاة الغامضة للرئيس الفلسطيني عرفات، أو ضرب برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، أو الغزو الأمريكي للعراق تعد كلها أمثلة لأحداث درامية صيغت من حولها أكثر من نظرية للمؤامرة. فتلك الأحداث الكبرى هي الزاد الذي تتغذى عليه نظرية المؤامرة، لما تحمله من عناصر قادرة على إطلاق الخيال إلى أبعد حدوده. ففيها من الغرابة، والدهشة، والمفاجأة، والخروج عن المألوف ما يدعو إلى ظهور أكثر من رواية تشرح كيف وقعت المؤامرة. ومن قبيل ذلك ما يرصده "مايك وارد" و "بوب ماترز" بعد وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ على نيويورك وواشنطن حينما رصدا عشر نظريات للمؤامرة على الأقل تم تداولها بين الأمريكيين أعادت تلك الهجمات إلى مؤامرات دبرتها أو سمحت بها قوى داخل واشنطن من أجل استغلال تلك الأحداث في شن هجمات خارجية تخدم أهدافاً ومصالح أمريكية واسعة(٣٦).

ويذهب بعضاً من أنصار هذا التفسير، مثل جيرى رووف وجيمس هيجدون، إلى أن التفكير بالمؤامرة ليس وليد للطبيعة الإنسانية وإنما هو نتيجة للموقف الذي يوضع الإنسان أمامه. فلو كان الأمر يعود إلى الطبيعة البشرية لكانت هناك نظرية للمؤامرة عن كل شيء يحدث في السياسة وفي غيرها. ولكن نظريات المؤامرة، وفقاً لهذا الرأي، تظهر فقط حيال الأحداث التي تتسم بالاضطراب، والتي عادةً ما تكون أحداثاً سياسية، أو تلك التي لا يتوافر عنها معلومات مما يدفع إلى محاولة استكمال النقص المعرفي عنها باختلاق قصص بديلة تحاول تفسير تلك الأحداث بردها إلى أسباب لا

تتوافر إمكانية إثباتها أو نفيها [٣٧]. فأمام حدث جلل مثل الغزو الأمريكي للعراق، اعتبر بعض المحللين العرب أن مثل هذا الاضطراب العالمي الكبير، وما صاحبه من إصرار أمريكي على تحدى الإرادة الدولية، إنما يفرض على التحليل السياسي ألا يرفض نظرية المؤامرة، وإنما عليه أن يعيد التفكير في تحديد الشروط التي تجعلها نظرية معقولة لأن تلك النظرية تستطيع أن تسد الفراغ المعرفي الذي لا يكشفه من يقف عند رصد الدوافع الأمريكية المعلنة لشن الحرب[٣٨].

ويأخذ بعضٌ من أنصار هذا الاتجاه من توزيع القوة السياسية مدخلاً آخر لتفسير انتشار التفكير بالمؤامرة. فالقوة السياسية لا تتوزع بطبيعتها بالتساوي، ولا تمارس دائماً من خلال القنوات الرسمية أو تتحدد بالآليات القانونية، وإنما يتدخل في ذلك اعتبارات كثيرة تختلف عما تقدمه التفسيرات الرسمية. فإذا كانت الرواية الرسمية تتحدث عن أن توزيع القوة السياسية يتم وفقاً لمعايير قانونية وضوابط مؤسسية وبالشكل الذي يضمن الحفاظ على الوضع القائم، فإن نظرية المؤامرة تقدم قصةً بديلة يعتنقها الجمهور، تفترض أن الوضع القائم لا يخدم إلا مصلحة المستفيدين منه، وإنه يستند إلى توزيع جائر للقوة يعبر عن تدخل قوى الشر من أجل تحريك العملية السياسية وفق ما يرجح كفتها[٣٩]. وعليه، فإن رواج هذه النظرية إنما يعود إلى قدرتها على لفت انتباه العامة إلى ضرورة طرح مفهوم شعبي بديل يشرح كيف تمارس العلاقات السياسية على نحو يبرز أوجه الخلل في توزيع القوة، وهي أمور لا تفضل القصة الرسمية الحديث عنها [٤٠].

٣- المؤامرة والبيئة الثقافية

أما التيار الثالث فيرجع الأخذ بنظرية بالمؤامرة إلى نمط الثقافة السياسية السائد، وما يسوده من قيم واتجاهات وخصائص تحفز على الشك وافتراض سوء القصد في سلوك الآخرين. والمفارقة أن هذا التيار لا يتفق على نمط بعينه من الثقافة السياسية يروج في ظله التفكير بالمؤامرة. فعلى جانب هناك من يعتقد أن نظرية المؤامرة تناسب وبشكل حصري الثقافة السياسية السلطوية. فبالرغم من أن جهاز الدولة في النظم السلطوية يحاول احتكار المعلومة والسيطرة التامة على صناعة الرأي، ويعمل على تعميم تفسير بعينه عن الأحداث السياسية يمثل الرأي الرسمي للنخبة الحاكمة، إلا أنه مع ذلك لا توجد نظم سلطوية كاملة حيث أن جهاز الدولة وإن استطاع مراقبة ورصد سلوك الأفراد إلا أنه لا يستطيع أن يراقب ما يدور في أذهانهم. ولهذا، فإنه تحت وطأة اليد القوية لأجهزة الضبط والتحكم في الدول ذات الثقافة السلطوية، تبدأ نظريات المؤامرة في التكاثر كرد فعل على نقص المعلومات كما توردها التفسيرات الرسمية. وإضافة إلى ذلك، فإن صراعات القوة في النظم السلطوية لا تتم عبر آليات مؤسسية واضحة مما يدفع بالعامة إلى التفكير في أن كل تغيير سياسي يرونه لا بد وأن يكون نتيجة لمؤامرة يحاول جهاز الدولة الرسمي التكتم عليها وإخفاء معالمها. وفي ظل نقص المعلومات

يحل التفسير بالخرافة محل التفسير بالحقائق، لتنتشر نظريات المؤامرة وتسيطر على التفكير الجمعي ، فـــلا تظهـــر التفسيرات التآمرية فرادى أو بمعزل عن بعضها البعض وإنما تخرج على شكل موجات متـــتالية و حلقات متصلة تفسر السياسة على أنها نتاج عوامل غامضة ومكائد مدبرة[٤١]. فعلى سبيل المثال، لاحظ البعض أن الحالة العربية المستغرقة في السلطوية مكنت لعالم الخرافة من السيطرة على العقـــلية العربية، وجعلت المؤامرات تتزامن وتتلاقح مع بعضها البعض في تناغم مذهل يعبر عنه على ســـبيل المثال لا الحصر سلسلة واسعة من نظريات المؤامرة التي خرجت إلى الساحات الفكرية العربية عقـــب إلقـــاء القبض على صدام حسين. فاعتبرته واحدة أنه ليس نفس الشخص الذي تم إلقاء القبض عليه، وزعمت ثانية أنه لم يلقى القبض عليه بالكيفية التي صورها الأمريكيون، وادعت ثالثة أنه ألقى القبض عليه ولكن قبل فترة طويلة من الإعلان عـــن الخبـــر[٤٢].

وعلاوة على فراغ المعلومات وانتشار الخرافة، فإن الثقافات السلطوية تتضمن تكريساً مركباً للخوف يدفع بالتفكير بالمؤامرة إلى الرواج على كافة مستويات وأشكال التفاعل السياسي والاجتماعي. فالخوف في الثقافات السلطوية لا يقتصر على ذعر المجتمع من جبروت الدولة، وإنما هو أيضاً خوف بين فئات المجتمع من بعضها البعض، وخاصة بين الأغلبية والأقلية. وبسبب تلك الحالة من المخاوف المتـــبادلة، تـــتعزز الفـــرص لبث الإشاعات وكيل الاتهامات لتصبح نظريات المؤامرة ركناً من الثقافة السياســـية السائدة[٤٣]. ولأن تلك المخاوف تتغذى على روايات تاريخية قديمة، فإن نظريات المؤامرة في البيئات الثقافية السلطوية لا تقتصر على أن تكون نوعاً من الفضول المؤقت أو التفكير العابر إزاء حـــدث سياســـي واحـــد، وإنما تتحول، كما هو في العالم العربي، إلى حالة ذهنية شاملة وعقلية تفكير متكاملة تفترض أن هناك مؤامرة وراء كل وليس بعض ما يحدث، لتبدأ بالبحث عن عدو تاريخى قديم تنســـج مـــن حولـــــه افتراضات معاصرة تتهمه بتعمد إلحاق الشر، فتقفز بدون فحص أو تدقيق من الافتراض إلى الاعتقاد ومن الظن إلى الاستنتاج[٤٤].

ولـــم يفـــت بعـــض الباحثين أن يربطوا بين خصوصية التجربة التاريخية وانتشار نظريات المؤامـــرة فـــي الـــدول ذات الثقافات السلطوية. فالسلطوية قد تكون مجرد نظام سياسي يفُرض على المجتمع في لحظة تاريخية معينة ثم يسقط بعد فترة دون أن يترك بصمات على طريقة تفكير المجتمع فـــي السياسة. ولكنها قد تتحول مع الاستمرار في الحكم لفترات طويلة وأجيال عديدة من نظام سياسي إلى ثقافـــة وطـــريقة تفكير متكاملة، لا سيما وأن النظم السلطوية كلما طال بها البقاء فإنها تندفع إلى الاشتباك مع الخارج في مواجهات تشكل مادة خام خصبة لانتعاش نظريات المؤامرة ينصب جانب كبير منها على القوى الاستعمارية والمنظمـــات الأجنبيـــــة[٤٥].

ولكـــن على جانب آخر، لا تخلو الثقافات الديمقراطية من عناصر ومكونات دفعت البعض إلى الاهـــتمام بدراســـة أســـباب انتشار التفكير بالمؤامرة في البيئات السياسية غير السلطوية. فهناك مثلاً الـــرافد الديـــني فـــي المجـــتمعات الديمقـــراطية والذي لم ينقطع تأثيره حتى بعد تبني تلك المجتمعات للعلمانية، إذ لا تزال القوى الاجتماعية المحافظة في تلك المجتمعات تتأثر بالرواية الدينية وما تتضمنه مـــن قصـــص للصراع بين الإنسان والشياطين، على نحو جعل الطرف الأول يبحث دائماً عن المعادل الدنيوي للطرف الثاني وشجعته على أن يتهم قوى بشرية على أنها متحالفة مع الشياطين في مؤامرة من أجل إفساده[٤٦]. ومن ناحية أخرى، فإن الثقافة الديمقراطية بطبيعتها ثقافة تعددية تقبل بالتباين في وجهـــات الـــنظر مهما كانت غرابة البعض منها، وتكفل الحق للجميع في التفكير بما في ذلك الحق في التفكير الخاطئ، الذي تعتبر نظرية المؤامرة مثالاً عليه. علاوة على ذلك، فإن الثقافات الديمقراطية لا يمكـــنها تجـــاهل تأثير عاملي الطبيعة الإنسانية وظروف البيئة التي يوجد فيها الإنسان على ميله إلى تبـــني التفكير بالمؤامرة لتفسير بعضاً مما يدور حولـــه من أحداث. فوفقاً لدراسة إمبريقية أجراها "تيد جويرتزل" في ١٩٩٢ على عينة عشوائية من ٣٤٨ مواطن أمريكي اختارهم من مقاطعات جنوب غرب ولايـــة نيـــو جيرسي ووجه إليهم مجموعة من الأسئلة حول عشرة من أشهر نظريات المؤامرة التي تخـــص السياســـة الأمريكية الداخلية والخارجية، وجد أن نسبة عالية من عينته المأخوذة من مجتمع ديمقراطي تعتقد في نظرية المؤامرة. فقد وجد على سبيل المثال أن ٦٩% من مفردات العينة يعتقد أن مقـــتل جـــون كنيدي كان بفعل مؤامـــرة، وأن ٥٤% منهم اعتقد أن الرئيسين ريجان وبوش الأب، وقـــت أن كان الأخير نائباً للأول، تآمرا مع إيران كي لا تطلق سراح الرهائن الأمريكيين إلا بعد انتهاء انتخابات ١٩٨٠ لكي يتمكنا من إلحاق هزيمة فادحة بجيمي كارتر. وقد كشفت هذه الدراسة كذلك عن أن الـــتفكير بالمؤامـــرة ارتـــبط بعاملي الاستعداد الشخصي والبيئة معاً، حيث كان أكثر المعتقدين في المؤامرة من بين أشخاص يعانون الإحساس بفقدان الثقة في الذات والشك في الآخرين كما أن من كان ينـــتمي مـــنهم إلى الأقـــليات مـــثل الســـود واللاتيـــنيين أظهروا ميلاً أكثر للاعتقاد في المؤامرة عن المستجوبين الممثلين للأغلبية البيضاء[٤٧].

ثالثاً: التفسير التآمري: مخاطر للعلـــم والسياســـة

لا يعنى انتشار نظرية المؤامرة أنها صحيحة علمياً أو مفيدة سياسياً. فلو كانت الأمور تؤخذ بـــالكم، وكـــان الحكـــم على صواب فكرة ما أو خطأها يُقاس بعدد أتباعها، لكانت التفسيرات العنصرية والأصـــولية المتشـــددة مـــثلاً تفسيرات صحيحة. فالانتشار ليس مدعاة للقفز إلى استنتاج بأن نظرية المؤامـــرة قـــد وصـــلت إلى مســـتوي من التعميم يؤهلها لأن تصبح إطاراً تفسيرياً علمياً صلباً. وإنما يقتضـــي الحكـــم عـــلى أسلوب التفكير بالمؤامرة النظر في اتجاهين أحدهما علمي يُضاهي مقولات ما

يسمي بنظرية المؤامرة مع متطلبات وشروط النظرية العلمية، والآخر عملي يرصد ما يرتبه التفكير بأسلوب المؤامرة من نتائج على الواقع، الذي هو في هذه الورقة الحياة السياسية سواء كانت داخل الأوطان أو فيما بينها.

على الجانب العلمي، لا تبدو نظرية المؤامرة منسجمة مع الحد الأدنى من قواعد التفكير العلمي، فهي لا تبدأ بافتراض لم يثبت صحته أو خطأه، وإنما تقطع بأن الطبيعة البشرية لدي الغير لابد وأن تكون سيئة وشريرة، تنزع إلى تدبير المؤامرات، وتفترض أن النشاط السياسي مرتع خصب للأعمال التآمرية لأنها تقوم على قاعدة مكيافيلية تقول بأن الغاية تبرر الوسيلة. ومثل هذا الافتراض يجعل نظرية المؤامرة تبتعد عن التفسيرات الرشيدة لتلجأ إلى تفسيرات مشوهة تستهدف بأي طريقة إثبات الطابع اللأخلاقي واللاقانوني لدى الآخرين، في مقابل تأكيد مبالغ على وداعة ومسالمة الجماعة المطلوب من نظرية المؤامرة الدفاع عنها.

فمثل هذا الجزم الذي تفترضه نظرية المؤامرة ومبالغتها في شيطنة الإنسان Demonization ليخالف ما تتصف به الطبيعة البشرية من وسطية وبينية لا تجعل المرء ينزع باستمرار إلى الخير أو ينكب بلا انقطاع على فعل الشر، وإنما يخضع سلوكه للموقف الذي يوجد فيه. إضافة إلى ذلك، يعاب على نظرية المؤامرة أنها تلغي تقريباً الحدود بين الحقيقة والخيال، وهي نقطة بالغة الأهمية بالنسبة للحكم على مدي علمية فكرة أو استنتاج ما. فالنظرية العلمية تقوم على افتراض أن أي ظن يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب، وأن تستخدم في صياغته درجة من التخيل والابتكار، ولكنه يبقى ابتكاراً منضبطاً في حدود ما تسمح به قاعدة البيانات التي يتعين على الباحث العلمي الاستناد إليها لدعم أو دحض الفرض العلمي الذي صاغه في بداية بحثه. أما نظرية المؤامرة فتدور في حلقة مفرغة لأنها تعتمد على ما يسمى بالأدلة الظرفية Circumstantial Evidences التي هي أحداث يتصادف وقوعها قبيل أو أثناء الحدث المفترض أنه يعبر عن مؤامرة، دون أن يكون وقوعها بالضرورة هو السبب وراء الحدث المطلوب تفسيره. فهي وقائع مصاحبة وليست مسببة للحدث محل الاهتمام كما أنها تختلف عن الأدلة السببية Causal Evidences التي يرتكن إليها التفسير في البحث العلمي. من قبيل ذلك الاعتماد على ما تردد بأن نحو ٤٠٠٠ يهودي لم يتوجهوا صباح الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلى برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك من أجل إثبات أن إسرائيل تآمرت لضرب البرجين، أو افتراض أن جماعات إسلامية تآمرت لضرب أحد المباني الفيدرالية في ولاية أوكلاهوما عام ١٩٩٤ بدعوى رؤية بعض الشهود لوجوه شرق أوسطية بالقرب من المبنى بساعات قبل تفجيره. فهذه أو تلك تمثل نموذجاً للاعتماد على أدلة ظرفية ثبت فيما بعد أنها لم تكن

دقيقــة أو لــم يكــن لها صلة بالحدث المطلوب تفسيره، وإنما تم الاعتماد عليها من أجل إعطاء فكرة المؤامرة قدر من المصداقية لدي من تقدم إليه(٤٨).

ومثل هذا الاعتماد على الأدلة الظرفية يكفي في حد ذاته لإدانة نظرية المؤامرة لأن تلك الأدلة تخــالف ما يقوم عليه التحليــل العلمــي من عقلانيــة بــاردة(٤٩). إضافةً إلى ذلك، تقع تلك النظرية فيمــا يســمي بمغالطة الترتيب الزمني Post Hoc Propter Hoc Fallacy لأنها وهي تفترض أن حدثــاً حاضراً وقع بسبب حدث ماضى أو سابق، تعود لتقدم الحدث الحاضر على أنه سبب يؤكد حدث الماضي. ولإيضاح ذلك، فقد صيغت علي سبيل المثال نظرية للمؤامرة عن ميخائيل جورباتشوف عندما تولــي زعامــة الاتحــاد السوفييتي في مارس ١٩٨٥، وقيل أن توليه في ذلك العام لم يكن إلا مقدمة لحــدث تآمري لاحق في ١٩٩١ حينما سقط الاتحاد السوفييتي، ولكن نفس هذه النظرية تعود لتستغل تفكــك الدولة السوفييتية لتؤكد أن سقوط الاتحاد السوفييتي بعد خمس سنوات من تولي جورباتشوف لدليل على مؤامرة شارك فيها الأخير.

ولا يقل سوءاً عن تلك المغالطة، مغالطة أخرى تعرف بمغالطة شبكة العنكبوت Fallacy Of The Spider s Web ، حيث تتوسع نظرية المؤامرة في توجيه الاتهام لتدين أسماء وشخصيات قد لا يكــون لها أي ارتباط بالأحداث التي تقع ولكنها تدرج في قائمة الاتهام لا لشيء إلا لأنها على صلة بالجهــة المتهمة بالمؤامرة. فإذا كانت الدولة (أ) متهمة بالمؤامرة ضد الدولة (ب)، وكانت (أ) على علاقــة جيــدة بالدولــة (ج)، فإن القائلين بنظرية المؤامرة عادةً ما يوسعون افتراضاتهم لتشمل تآمر الدولة (ج) مع الدولة (أ) ضد الدولة (ب)، بمعنى أن صديق عدوى لابد وأن يكون هو الآخر عدو لي.

ويــأخذ منــتقدو نظرية المؤامرة عليها أيضاً أنها تجعل العلم رهينة في يد التنظير السطحي لــلعامة، وأنها الباب الذي يتسلل منه غير المتخصصين إلى ميدان التحليل السياسي. وفي هذا الصدد يعتــبر بعــض الباحــثين أن نظرية المؤامرة ليست أكثر من حركة شعبوية Populist Movement تســللت إلى ميدان العلوم الاجتماعية وبالذات من قبل القوى المعارضة للنظام السائد. فهي وإن كانت تبحث في كيفية ممارسة القوة في المجتمع، إلا أنها تسرف في تبسيط الحقائق المعقدة للسياسة، فتلقي المســؤولية عــلى حفــنة قليــلة من الأفراد تصفهم بالشر والخسة، والتفنن في إيذاء الغالبية الطيبة المســتكينة من المجتمع، وهي لذلك نظرية لا تملك قدرة استفهامية Inquisitive تمكنها من الكشف عــن حقيقة الظاهرة السياسية أو الوقوف على التشريح الدقيق للقوة، وإنما تكتفي بالبحث عن كبش فداء تحمله المسؤولية(٥٠).

فمقــولات نظرية المؤامرة بسيطة تدعي أنها تصلح لتفسير كل شيء على نحو يتعارض مع طــبيعة الظاهــرة السياسية ذاتها التي يحتاج فهمها إلى تكامل الأطر المرجعية. ليس هذا فحسب وإنما

يؤخذ عليها أنها تبعد المحللين عن الالتفات إلى الأسباب الحقيقية للمشكلات، لأن مقولاتها تفيد في دراسة أحداث ماضية وقعت وانتهت وثبت بالدليل القطعي أنها كانت نتيجة مكيدة مدبرة، وليس في دراسة أحداث لا تزال في طي التكوين ولا يمكن في ظل ما يتوافر عنها من أدلة الزعم بأنها وليدة مؤامرة. فالقطع بأن هناك مؤامرة عادةً ما يقتضي الانتظار عشرات السنين إلى أن تتكشف الوثائق المؤكدة لوقوع حادثة التآمر، ووقتها يكون الحدث قد تحول من واقعة سياسية إلى واقعة تاريخية، وهو ما يجعل التفكير التآمري ذو قيمة تاريخية أكثر منه سياسية.

ويعاب على نظرية المؤامرة أيضاً نوعية الأدلة التي تستند إليها، إذ أنها تتخير الدليل الظني الضعيف على حساب الدليل القاطع الملموس، فلا يهمها تحرى صدق الأدلة، وإنما تلجأ وفق الحاجة إلى تضخيمها أحياناً والتقليل منها في أحيان أخرى طالما أن ذلك يخدم هوى القائلين بالمؤامرة، وهي لذلك لا تراعى ما قد يتسرب من فساد وتحريف في المعلومات التي تستند إليها افتراضاتها، إذ لا يهمها دقة المعلومات بقدر ما يهمها توفرها وبالشكل الذي تريده(٥١).

أما على الجانب العملي، فيعاب على التفكير بالمؤامرة أنه يرسي تقاليد الشك والتخوين، على نحو يحول الحياة السياسية إلى ساحة صراع غير منضبطة بسبب انعدام الثقة في الآخرين بالشكل الذي يخلق بيئة سياسية غير منضبطة لا تحكمها القواعد القانونية وآليات عمل المؤسسات وإنما تتحكم فيها مشاعر الخوف والاضطهاد على نحو يؤدي بالفرقاء السياسيين إلى الدخول في حالة خصومة مستدامة، ليكيل اليمين لليسار الاتهام تلو الآخر والعكس بالعكس، بشكل يُسرع من حدوث حالة من الاستقطاب السياسي تفتح الباب للفوضى وعدم الاستقرار.

ولا يقل خطورة عن ذلك أن نظرية المؤامرة بإسرافها في الشك، ترسى عادة سلبية بتشجيعها على التهرب من ممارسة النقد الذاتي وإلقاء اللوم على الغير، وأن يتعامل الفرد مع العالم من حوله على أنه مكان خطير لا تجب الثقة فيه أو التعاطي معه إلا في أضيق الحدود مما يفضي إلى فرض نوع من العزلة على الذات. ولهذا، فإن نظرية المؤامرة تعد مرتعاً خصباً تنمو فيه مشاعر القلق والاضطهاد وتكثر بسببه الأوهام الجمعية Collective Delusions حيث لا يقتصر الاعتقاد في المؤامرة على من يطلقها أو يروجها، وإنما تنتشر، بسبب جاذبيتها وبساطتها، لتشمل فئات واسعة، لينتهي الأمر بترويج نموذج مفاهيمي شديد الخطورة يتبنى بموجبه العامة تقسيماً مزدوجاً للسياسة يفهمها على أنها صراع بين فريقين أحدهما يرمز للخير والآخر يجسد الشر(٥٢). ونتيجة لانتشار تلك الأوهام الجمعية، فإن نظرية المؤامرة تفشل في تناول توزيع القوة السياسية بصورة عقلانية منطقية، فلا تتحدث عن السياسة كصراع بين النخب أو الطبقات أو القوى الاجتماعية من طوائف ومجموعات دينية وعرقية، وإنما تجعلها أشبه بصراع بين قوى غامضة وأيد خفية لا يمكن تلمسها أو تحديدها.

فـنظرية المؤامـرة تقـدم تفسـيراً شبه ميتافيزيقي للسياسة عندما تتجاهل طبيعة التركيبة والهيـاكل السياسـية وما يدور بداخلها من صراعات مشروعة تحركها المصالح بشكل يمكن التعرف عليها، لتتجه بدلاً من ذلك إلى البحث عن نوايا خبيثة وشكوك ليس من اليسير إثباتها أو نفيها. وحتى إذا مـا حـاولت نظـرية المؤامرة أن تستعين ببعض الأطروحات السياسية المستقرة، فإنها تعدل منها بالشـكل الذي يتماشى مع تأسيس فكرتها على الشك المطلق في الآخرين. فعلى سبيل المثال، قد يهتم الفكـر التآمري بالصراع بين النخب، ولكنه مع ذلك لا يميل إلى رؤيته كعمل منظم أو تفسيره على أنه جـزء لا يـتجزأ من الطابع الانقسامي للحياة السياسية، وإنما يعتبر أنه صراع لا يدور في العلن، بل يضـرب في السرية ويتفاعل في الخفاء[٥٣]. ولهذا السبب يعاب على نظرية المؤامرة أنها تفتح الباب أمـام تكويـن رؤية غير واقعية عن الحياة السياسية، فلا تعيد الأحداث والتطورات إلى عملية التفاعل الصـعبة والمعقدة بين القوى الاجتماعية، وإنما تفسرها على أنها نشاط تحركه أيد غير نظيفة. وطالما بـني فهـم السياسـة عـلى تلك القاعدة المغلوطة، فإن نظرية المؤامرة تدفع، كما يؤكد البعض، إلى الاهـتمام بالتفسـير المنحاز للظواهر، فتبتعد كثيراً عن الموضوعية وتحيل الخطأ إلى قـوى خارجية تتحمل مسؤولية الضرر الواقـع أو الفشـل عن تحقيـق الهـدف[٥٤].

واتصـالاً بتـلك الملاحظـة، فإن التفكير بالمؤامرة يسهم ولو بشكل عفوي في تعطيل التقدم الديمقـراطي وإعاقـة الخروج من دائرة الحكم المتسلط، حيث تعتمد نظم الحكم غير الديمقراطية على تـرويج عـدد من نظريات المؤامرة إما لإخافة العامة من خطر مختلق أو لشغلهم عن متابعة الشؤون العامـة لتـنفرد بها الأقلية المتحكمة. فعادةً ما تنشر النظم الديكتاتورية نظريات مؤامرة تتصل بأخطار قادمـة مـن الخـارج بالشكل الذي يسمح للنظام الحاكم بإخفاء أخطائه وراء الادعاء المستمر بأن ما يعيـش فيـه العامة من معاناة ومشكلات يرجع إلى أسباب خارجة عن الإرادة. علاوة على هذا، يؤدي التوسـع فـي نشـر نظريات المؤامرة إلى خلق شعور لدى الأفراد بأن سيادة بلادهم مهددة على نحو يجعلهم مهيئين للتجاوب مع سياسات التعبئة والحشد متى ما قرر النظام اللجوء إليها [٥٥].

خاتمة : عنها وليس بها

لا يعـني رفض نظرية المؤامرة أن أفعال التآمر لا تحدث، أو أنها لو وقعت لا تؤثر في مسار العمـل السياسي، وإنما يعني أن المؤامرة ليست هي مسار العمل السياسي، أو القاعدة التي يُفهم من خلالها كل ما يدور في الحياة السياسية ، أو المقياس الذي تحسب على أساسه تفاعلات القوة. فقيمة الـنظريات واسـعة النطاق في علم السياسـة Broad-Gauged Theories، كمـا فـي أي علم آخـر، تتجسـد فـي قدرتها على التصدي بالشـرح والتفسير لكثير من المواقف والحالات المرتبطة بالظاهـرة الرئيسية التي يبحثها هذا العلم، والتي هي في حالة علم السياسة ظاهرة القوة. فالنظريات

واسعة النطاق، تبنى حول مفهوم مركزي، يوظف ويطبق من أجل فهم عشرات المفاهيم والمصطلحات الأخرى، ليكون هو الباب الذي يدخل منه الباحث إلى دراسة الظاهرة السياسية بمختلف تجلياتها. فعلى سبيل الإشارة، فإن اقترابات نظرية مثل "الطبقة" أو "النخبة" أو "تحليل النظم" أو "البنيوية الوظيفية"، يتبنى كل منها مصطلحاً رئيسياً واحداً، أو عدداً محدوداً من المصطلحات، لتشرح كثيراً مما يحدث في الميدان السياسي. فمنظور النخبة على سبيل المثال، يمكن تطبيقه على عشرات الحالات مثل محاولة فهم السلوك الانتخابي للمقترعين والمرشحين، أو لدراسة تطور الحياة الحزبية، أو للبحث في تاريخ الصراع الاجتماعي، أو لمراجعة دور البيروقراطية، أو للوقوف على طريقة عمل السياسة على المستوى المحلي، بل وحتى على المستوى الدولي. ونظرية تحليل النظم تقدم مثالاً آخر. فهي بمصطلحاتها الرئيسية، مثل المدخلات والمخرجات والتغذية المرتدة، تستطيع أن تقترح إجابات لأكثر من سؤال حول طريقة صنع القرار ، أو أسلوب رسم وتنفيذ السياسات العامة، أو لماذا تُشن الحروب، أو كيف يُصنع السلام، وما إلى ذلك من تطبيقات.

أما "نظرية المؤامرة" فحالة مختلفة، فقد أعطيت لقب "نظرية" ترضيةً لأذواق العامة ضمن حالة الركاكة والميوعة المتفشية في استخدام المصطلحات، والتي بسببها تخلع الأسماء على غير مسمياتها، تماماً كما يُعطي بعض أصحاب المهن لأنفسهم ألقاباً غير التي يستحقونها. وهي لا تمت بصلة إلى فئة النظريات العلمية واسعة النطاق ولا إلى النظريات العلمية بالمرة. فبدلاً من أن تبدأ مثل بقية النظريات العلمية في البحث داخل المساحات المكشوفة من السلوك السياسي، يهتم التفكير بالمؤامرة أولاً وأخيراً بالتفتيش عما يدور في الظلام، فلا يسترعي انتباهه إلا ما يدور خلف الكواليس، وبالتحديد كل ما يثبت رداءة السلوك الإنساني ومكره.

قد لا يوجد خطأ في أن يهتم التحليل السياسي بما يدور خلف الستار، بل ربما إن ذلك هو ما تفعله معظم الاقترابات النظرية المستعملة في التحليل السياسي من خلال بحثها عن مواضع النفوذ وتحليلها لمواقع التأثير من خارج الأبنية والقنوات والهياكل الرسمية. ولكن الفارق بين ما تقدمه تلك الاقترابات، وما تطرحه "نظرية المؤامرة" كبير. فتلك الاقترابات صممت لمحاولة فك غموض الظاهرة السياسية، وزيادة فهم الناس لها، وربما لتشجيعهم على إبداء قدر من الثقة فيها. بينما نظرية المؤامرة على العكس من ذلك تعمق مشاعر الكراهية في الفعل السياسي، وتزيده غموضاً وسرية، والأخطر أنها تتجاهل ما هو رسمي لتبحث في كل ما هو غير رسمي، ثم تتدنى بعد ذلك بكل ما هو غير رسمي للبحث في كل ما هو خبيث. وكأن السياسة أضحت بكل تطبيقاتها مسرحاً للشر والرذيلة، وهو أمر لا يمكن التسليم به أو قبوله على علته، إذ لا يمكن تفسير الانتخابات مثلاً على أنها

مؤامرة، أو تشكيل الثقافة السياسية وصناعة الرأي العام على أنهما مؤامرة، أو صياغة الدستور على أنه مؤامرة وهلم جرا.

فالمؤامـــرة ليست نظرية واسعة النطاق يمكن أن يستعين بها الباحثون لتفسير مختلف أوجه العمـــل السياسي كما تفعل النظريات المستقرة في هذا الحقل، وإنما هي واقعة سياسية تحدث من وقت لآخـــر ، كما أنها حالة تفكير تشيع بين الناس في كثير من الأحيان بما يدعو إلى صياغة نظرية عنها تكـــون ضـــيقة الـــنطاق Narrow-Gauged Theory، أي تهتم بشرح وتفسير كل ما يتصل بهذه الحالـــة. فتـــبين عـــلى سبيل المثال لماذا يلجأ الناس إلى التفكير بالمؤامرة؟ وكيف يصنع الناس نسق التفكير التآمري الخاص بهم؟ ، وكيف ولماذا يتحول الناس من اللجوء إلى المؤامرة إلى الترويج لها؟

الهـــوامش

(١) W. Philips Shively, *Power and Choice: An Introduction to Political Science*, (New York, NY: McGraw-Hill, INC, 1995) 3-8.

(٢) Julian Swann, "Conspiracy Theories: *History Today*", http://www. Findarticle.com/cf_0/m1373/5_51/74483220/print.jhtml.

(٣) Evan McKenzie, "Conspiracy Theories of Politics", http://tigger.uic. edu /~ mckenzie/conspire.html

(٤) Jeffrey M. Bale, "Conspiracy Theories and Clandestine Politics", *Lobster: The Journal of Parapolitics,* URL: http://www.lobster-magazine.co.uk/ articles/i29consp.htm

(٥) John Emerson, "On Conspiracy Theories", http://www. Democraticunder ground.com/articles/ 01/10/p103_conspiracy.htmj.

(٦) أحمـد منيسى، "التفكير بالمؤامرة،"، *الأهرام*، ٢٠٠٣/٩/١٥، ٢١ وإبراهيم عبد العزيز صهد، "المؤامـــــرة ونظريـــــتها...بيـــــن الجحـــــود والمـــــبالغة، http://www.nfsl.libya.com/Articles/1171.p.htm.

(٧) Jeffrey M. Bale, op.cit.

(٨) Ted Goertzer, "Belief in Conspiracy Theory: Political Psychology," 15:733-744,1994,URLhttp://www.crabrutgers.edu/~goertzel/CnsPIRE. Doc

(٩) Stephen Van Evera, *Guide to Methods For Students of Political Science* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1997) 17-21.

(١٠) يمكن مراجعة القواميس والمعاجم العربية على الموقع التالي: http://lexicon.ajeeb.com

(١١) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (بيروت: مكتبة لبنان) ص ١٩٨، ٨٢

(١٢) *The New Encyclopedia Britannica*, vol. 3, (Chicago, IL: University of Chicago, 1991) 557; Tyrone Yarbrough, "Consider the Source: Conspiracy Theory, Narrative, Belief", http://www.tmple.edu/isllc/ newfolk/ consider.html

(١٣) William Gibson, "Conspiracy Theory", http://fusionanomaly.net/conspir acytheories.html

(١٤) "Conspiracy Theory", *Disinfopedia: The Encyclopedia of Propaganda*, http://www.disinfopedia.org/wiki.phtml?title=conspirac-ytheory8printa ble=yes

(١٥) Tyron Yarbrough, "Consider the Source 2", http://www.temple.edu/islk/newfolk/consider2.html

(١٦) "Christianity and Conspiracy Theory", http://www.acts17-11-com/conspire.html.

(١٧) Tamim Ansary, "Conspiracy Theory: What's Controlling History?", http://encarta.msn.com/encent/features/cilumns/?article=conspiracyborn.

(١٨) The Center for Conspiracy Culture, "What is Conspiracy", http:// www.wkac.ac.uk/centre.htm; "The A-z of Conspiracy", http://www. conspiracy bomb/azconspiracy.htm.

(١٩) George Johnson, "The Conspiracy That Never Ends", *New York Times*, April 30, 1995, sec. 4, p.5.

(٢٠) Jeffrey M. Bale, op.cit.

(٢١) ibid.

(٢٢) Tyrone Yarbrough, op.cit.

(٢٣) ibid.

(٢٤) Ted Ral, "Bush Fuels Oil Conspiracy Theory", http://www. alternet. Org/story.html/ StoryID.

(٢٥) Tyrone Yarbrough, op.cit.

(٢٦) "The A-z of Conspiracy", op.cit.

(٢٧) BBC, *"Why We Need Conspiracy theories"*, http://www.news.bbc.co.uk/1/hi/world/americas/1561199.stm

(٢٨) Josh Goodman, "The Dangerous Allure of Conspiracy Theories", *The Yale Herald*, http://www.yaleherald.com/article.php?Article=1859.

(٢٩) Richard, Hofstadter, *The Paranoid Style in American Politics* (New York, NY: Alfred A. Knopf, 1965).

(٣٠) Clayton E. Tucker-Ladd, "Disliking Others, Without Valid Reasons: Prejudice", *The Authoritarian Personality: A Psychological Self-Help*, http://mentalhelp.net/psyhelp/chap7/chap7/htm.

(٣١) Xavier Poez, "Conspiracy Theory Literature," http://www.faqs.org/faqs/books/conspiracy-theory.

(٣٢) Mathew N. Lyons, "The Political Assumptions of Conspiracism", *The Public Eye*, http://www.publiceys.org/tooclose/conspiracism-07.htm.

(٣٣) Eric Ward, *Conspiracies: Real Grievances, Paranoia, and Mass Movements* (Peanut: Butter Publishing, 1996) p. 98.

(٣٤) http://www.gossamer-wings.com/soc/Notes/race/tsld007.htm

(٣٥) Tyrone Yarbrough, op.cit.

(٣٦) Mike Ward and Pop Matters, "Top Ten Conspiracy Theories of 2002", http://www.alternet.org/print.html?StoryID=14873.

(٣٧) Gery Rough, "The Rise of the Modern Conspiracy Theory Movement", http://floodlight.org/democracy/rise.html.

وراجع أيضاً:

James Higdon, "A Primer on Understanding Conspiracies", *Online Journal*, www.onlinejournal.com, Nov.14, 2001.

(٣٨) ياسين الحاج صالح، "النظرية العقلانية الوحيدة لتفسير الأحوال هي نظرية المؤامرة: بوش يبيع العرب حاجتهم للكذب على أنفسهم"

http://www.arabnews.com/alshaab/GIF/27-09-2002/2/20%2019.htm

(٣٩) Mark Fenster, *Conspiracy Theories: Secrecy and Power in American Culture* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999); http://www.publiceye.org/conspire/conspiracies.html.

(٤٠) Tyrone Yarbrough, op.cit.

(٤١) Frank McIynni, "History is not Always a Cock-up: A Hope for an Adult and Common Sense Approach to Conspiracy Theories", Sept. 20, 1999, URL, http://www.findarticles.com/cf0mo FQP/ 445428/ 576020 print. jhtml

(٤٢) عبد المنعم سعيد، "ومنكم يولى عليكم"، *الأهرام العربي*، العدد ٣٥٣، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٣.

(٤٣) Mohammed Ajami, "Political Analyst or Conspiracy Theorist: Who Decides?", *Daily Star*, June 3, 2003, http://www.Lebanonwire.com/ 0306/ 03060313DS.asp.

(٤٤) Daniel Pipes, "Diana and Arab Conspiracy", *The Middle East Forum*, http://www.meforum.org/article/pipes/290.

(٤٥) Ahmad Ashraf , "Conspiracy Theory in the Persian Mind", http://www. iranian.com/ May96/Opinion/Conspiracy.html.

(٤٦) "Christians and Conspiracy Theory", http://www.acts17-11.com/ conspire .html

(٤٧) Ted Goertzer, 'Belief in Conspiracy Theory', *Political Psychology*, 15:733-744,1994,URL: http://www.crabrutgers.edu/~goertzel/CnsPIRE Doc.

(٤٨) Josh Goodman, 'The Dangerous Allure of Conspiracy Theories', *The Yale Herald*, http://www.yaleherald.com/article.php?Article=1859.

(٤٩) جوزيف سماحة، "عودة إلى نظرية المؤامرة" ، مكان النشر مجلة، جريدة..إلخ ٨ أغسطس ٢٠٠٣

(٥٠) Chip Berlet, 'Conspiracism as a Form of Scapegoating', http://www.Publiceye. Org/ bconspi.html.

(٥١) 'Critical Thinking About Conspiracy Theory', http://www.uea.ac.uk/ ~ j097/ CONSP01.htm7_ftnref16

(٥٢) Ahmad Ashraf, op.cit.

(٥٣) 'Conspiracism and Secret Elites', http://www.publiceye.org/ tooclose/ conspiracism-05.htm.

(٥٤) Mathew N. Lyons, op.cit.

يرصد الكاتب العربي عثمان العثمان في هذا الصدد ما أحدثته نظرية المؤامرة من تشويه للفكر العربي حيث أدت هيمنتها على التفكير الجمعي العربي في تناوله للقضايا الدولية، إلى إشاعة روح التنصل من أسباب الهزيمة والبحث عن آخرين يتحملون مسؤولياتها وهو ما وجده على سبيل المثال في تعقبه لتطور التفكير العربي إزاء للقضيتين الفلسطينية والعراقية.

عثمان العثمان، *نقد نظرية المؤامرة* (دمشق: مؤسسة سندباد للطباعة والفنون، ٢٠٠٣).

(٥٥) أحمد شوقي، "الاعتقاد المطلق في نظرية المؤامرة"، http://www.heggy.org/books/taamolat/ch_2_10.htm